تجديد مناهج البحث في علم الكلام الإسلامي

Renewal of research methods in theology

الزبير طهراوي[1]، فاروق خلف[2]

[1] معهد العلوم الاسلامية؛ جامعة الوادي، (الجزائر) robbah3@gmail.com

[2] كلية الحقوق و علوم سياسية ؛ جامعة الوادي،(الجزائر) Khelef.farouk@gmail.com

تاريخ إرسال المقال:2019/11/25 تاريخ قبول المقال: 2021 /01/16 تاريخ نشر المقال: مارس/2021

الملخص

علم الكلام من أكثر العلوم إثارة للخلاف والجدل، وقد اخترت الحديث عن التجديد في هذا العلم لما له من أهميةٍ بالغةٍ بين العلوم الشرعية، لأنه يبحث في مسائل العقيدة التي هي أساس بناءِ الإسلام، ولأن العلم يشَرف بشرَفِ موضوعه، وموضوعه يتعلق بإقامة البراهين على وجود الله وتوحيده وكماله، وعلى صدق النبوة، والإيمان بالبعث والآخرة.

يتناول هذا البحث موضوعا مهما يتمثل في مناهج علم الكلام والتحديث الذي طرأ عليها، وقد حاولت في هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على تجديد مناهج هذا العلم، فتطرقت في المبحث الأول إلى تعريف علم الكلام لغة واصطلاحا، ثم بينت الفرق بين علم الكلام والفلسفة، وعرّجت على موقف العلماء من علم الكلام، أما المبحث الثاني فتطرقت فيه إلى تعريف المنهج لغة واصطلاحا، ثم بينت فيه مناهج البحث في علم الكلام القديم. وفي الأخير تطرقت إلى تحديث المناهج في علم الكلام الحديث، ثم خاتمة سجلت فيها بعض النتائج.

الكلمات المفتاحية: علم الكلام، التجديد، المناهج، الفلسفة، المتكلمين.

Abstract:

Theology is one of the most controversial sciences, and I have chosen to talk about innovation in this science because it is of great importance among the islamic sciences, because it examines the issues of faith that are the basis of the building of Islam, and because science honors the honor of its subject, and its subject is related to the establishment of proofs of the existence of God and its unification. And his fullness, the sincerity of prophecy, and the belief in the resurrection and the hereafter.

This research deals with an important topic, which is the methods of speech science and modernization that has occurred, and in this paper tried to highlight the renewal of the curricula of this science, i touched in the first topic to the definition of speech science language and terminology, and then showed the difference between speech science and philosophy, and i looked at the position of scientists m The second topic dealt with the definition of the curriculum in language and terminology, and then outlined the research methods in the science of ancient speech. Finally, i touched on the modernization of the curriculum in modern speech science, and then a conclusion in which some results were recorded.

Key words: Theology- renewal - methods – philosophy – Speakers.

المؤلف المرسل: الزبير طهراوي , الإيميل:robbah3@gmail.com

مقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، ورضي الله عن آل بيته الطاهرين، وخلفائه الراشدين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

يُعدّ علم الكلام بُعدًا وفاعلا رئيسيا في المنظومة المعرفية لأي دين، ولارتباطه بالمسألة العقدية والإيمانية يُعدّ أكثر عناصرها حساسية، ومن الطبيعي وفقا لهذه المكانة والموقعية أن يمثّل التنامي أو التغييرات والتعديلات الطارئة عليه، تغيرا بنيويا في البناء الهندسي والمعرفي لأي دين، مما ينتج حساسية التحفظ على تجديد هذا العلم أو تجاوز شكله القديم، ربما أكثر من سواه من العلوم الدينية شأن الفقه وأصوله أو علوم الدين المختلفة، لاحتواء هذا العلم على المبادئ التصديقية للمعارف الأخرى، لذا يجب أن تكون الانطلاقة من القاعدة إلى القمة، حيث غلب الاهتمام في السابق على الفقه دون الكلام وتهميش الأخير لصالح الأول منذ القرن التاسع الهجري، وهو ما يجعل بعض المتحيزين لعلم الكلام الجديد يرى أن التنمية الشاملة لعلم الكلام من الضروري أن توضع "في سلّم الأولويات الفكرية والثقافية؛ لأن قضية إعادة ترتيب الأولويات بما يناسب الظروف الثقافية الراهنة، وعدم التقيد بالترتيب السابق لهذه الأولويات الذي اقتضته ظروف سابقة مختلفة، تعدّ واحدة من أهم ما ينبغي تحديده، للتوصل إلى نموّ صحيح بدلا من التورط بحالات تورّم[1].

أهمية موضوع البحث:

تتمثل أهمية هذا البحث في:

- تسليط الضوء على علم الكلام في الدراسات الحداثية المعاصرة.
- إعادة بعث النتاج الكلامي من جديد ضمن آليات عمل متناغمة مع تطوّرات المعرفة الإنسانية
- تجديد علم الكلام أو طرح علم كلام جديد يستجيب لتحديات العصر وحاجيات المسلمين الثقافية.
- ضرورة التوصل لمناهج جديدة مناسبة للشبهات والمسائل الجديدة.
- مواكبة عصر المعلومات والاتّصالات وما يطرحه من تحديات فكرية.

أهداف الدراسة:

- التعريف بعلم الكلام وبيان آراء الفقهاء فيه.
- بيان الفرق بين علم الكلام والفلسفة.
- تسليط الضوء على مناهج علم الكلام قديما وحديثا.

- إشكالية البحث:

لقد دفع احتكاك المسلمين بغيرهم من الثقافات إلى ظهور أصوات تدعو إلى تجديد علم الكلام أو طرح علم كلام جديد يستجيب لتحديات العصر، لأنّ علم الكلام القديم لم يستطع من حيث المنهج والأسس التي يقوم عليها والمسائل الكلامية التي كان يطرحها، والأهداف التي كان يبتغي تحقيقها أن

يتعامل مع مطلب إنسانيّ جديد حتّمته حاجيات المجتمع الإنساني المعاصر، مما دفع إلى تجديد علم الكلام، لكن ثمة اختلاف حول حدود التحديث في المنهج، مما أدى إلى طرح الإشكالية الآتية: ما هي أبعاد التجديد المنهجي في علم الكلام؟

وتندرج تحت هذه الإشكالية جملة من التساؤلات: ما معنى علم الكلام؟ وما الفرق بينه وبين الفلسفة؟ وما هي المناهج المتبعة في علم الكلام القديم؟

منهج البحث: اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج الوصفي لبيان تعريف علم الكلام ومناهجه، وكذا المنهج الاستقرائي باستقراء النصوص الشرعية وأقوال أهل العلم في هذا السياق، والمنهج المقارن والتحليلي كلما اقتضى الأمر ذلك.

الدراسات السابقة:

كتبت العديد من البحوث والدراسات التي تتناول هذا الموضوع منها:

1-دراسة بعنوان: "مناهج البحث في العقيدة" للدكتور يوسف السعيد، نشرت في مجلة الدراسات العربية، العدد السابع. وهي دراسة متضمنة لمعنى هذا العلم وأهميته وأصله وأدلته والتدوين فيه وأبرز مناهجه ومصادر التلقي والاستدلال فيه مع ذكر نماذج تطبيقية لذلك.

2-دراسة بعنوان: "مناهج البحث في العقيدة الإسلامية في العصر الحاضر" للدكتور عبد الرحمن الزنيدي، وكما يظهر من العنوان فهو معني بالعصر الحاضر، وإن كان الباحث قد مهد لذلك بذكر مقدمة عن مناهج البحث في العقيدة عند المتقدمين.

3-دراسة بعنوان: "دراسة في المنهج لعلم الكلام المقارن" للباحث عباس علي البراتي، الكاتب في مركز الدراسات بمجمع التقريب بقم، نشر في مجلة التقريب العدد الرابع. وقد تعرض في هذه الدراسة لمناهج البحث في علم الكلام.

- خطة البحث:

المبحث الأول: مفهوم علم الكلام وموقف العلماء منه

المطلب الأول: تعريف علم الكلام لغة واصطلاحا.

المطلب الثاني: الفرق بين علم الكلام والفلسفة.

المطلب الثالث: موقف العلماء من علم الكلام

المبحث الثاني: تجديد مناهج علم الكلام

المطلب الأول: تعريف المنهج لغة واصطلاحا.

المطلب الثاني: مناهج البحث في علم الكلام القديم.

المطلب الثالث: تحديث المناهج في علم الكلام الحديث.

خاتمة تسجل نتائج البحث.

المبحث الأول: مفهوم علم الكلام وموقف العلماء منه

وأتناول فيه تعريف علم الكلام والفرق بينه وبين الفلسفة ثم موقف العلماء منه

المطلب الأول: تعريف علم الكلام لغة واصطلاحا.

وأتطرق فيه إلى التعريف اللغوي والاصطلاحي لعلم الكلام

الفرع الأول: التعريف اللغوي لعلم الكلام

لا بد من وضع الموضوع في إطاره المفاهيمي من خلال تعريف أهم المصطلحات كالعلم والكلام في اللغة والاصطلاح.

أولا: تعريف العلم لغة واصطلاحا

العلم لغة: نقيض الجهل، علم علما وعلم هو نفسه، ورجل عالم وعليم من قوم علماء فيهما جميعا[2] العين واللام والميم أصل صحيح واحد يدل على أثر بالشيء يتميز به عن غيره من ذلك العلامة وهي معروفة يقال علمت على الشيء علامة ويقال أعلم الفارس إذا كانت له علامة في الحرب وخرج فلان معلما بكذا والعلم الراية والجمع أعلام والعلم الجبل وكل شيء يكون معلما خلاف المجهل وجمع العلم أعلام أيضا[3].

العلم اصطلاحاً: هو نقيض الجهل، وهو: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمً[4]

أو هو معرفة الشيء على ما هو به[5].

ثانيا: تعريف الكلام لغة واصطلاحا

الكلام لغة: الكلام لغة يدل على نطق مفهم ....، تقول: كلمته أكلمه تكليما، وهو كليمي إذا كلمك أو كلمته[6] أو هو اللفظ الموضوع لمعنى: مفيداً أو غير مفيد.

أما اصطلاحا: فهو ما اجتمع فيه أربعة امور: الأول أن يكون لفظا، والثاني ان يكون مركبا، والثالث ان يكون مفيدا، والرابع أن يكون موضوعا بالوضع العربي[7].

الفرع الثاني: التعريف الاصطلاحي لعلم الكلام

عرّف علم الكلام أو علم الجدل أو الأخذ والرد أو الحجج بعدة تعريفات أهمها تاريخياً:

1. علم الكلام هو علم يُقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبهة.[8]

2. وعرف العلم الذي يبحث فيه عن إثبات أصول الدين الإسلامي بالأدلة المفيدة لليقين به.[9]

3. كما عرف بأنه علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة.[10]

المطلب الثاني: الفرق بين علم الكلام والفلسفة.

بعد تعريف علم الكلام وجب علينا أن نتطرق لتعريف الفلسفة قبل الشروع في التفريق بينهما

الفرع الأول: تعريف الفلسفة

الفلسفة هي علم الأشـياء بـحقائقها بقدر طاقة الانسان[11]، وعرّفها الفارابي بأنها الـعلم بالموجودات

بما هي موجودة[12].

بمعنى أنها تهتم بدراسة كل ما يتعلق بما هو موجود في هذا الكون باستخدام ما هو متاح من إمكانيات ووسائل.

الفرع الثاني: أهم الفروق بين علمي الكلام والفلسفة

من أسباب ظهور هذا العلم هو ترجمة كتب الفلاسفة ودخولها رقعة العالم الإسلامي، حيث أصبحت تشكل تهديدا وخطرا يمسّ عقيدة المسلمين، ونظرا للشكوك التي أثارتها جعلت علماء المسلمين ينكبّون على دراسة كتب الفلاسفة للرد عليهم بالسلاح الذي يستعملونه، وقد اختلط علم الكلام بفلسفة اليونان وقد ذكر التفتازاني في السياق ذاته أنه: ''لما نقلت الفلسفة إلى العربية وخاض فيها الإسلاميون حاولوا الرد على الفلاسفة فيما خالفوا فيه الشريعة، فخلطوا بالكلام كثيرا من الفلسفة، حتى كاد لا يتميز عن الفلسفة لولا اشتماله على السمعيات يعني بعض النصوص من آيات وأحاديث[13]، ولما حدث اختلاط بين موضوعات الكلام وموضوعات الفلسفة، خصوصا عند المتأخرين من المتكلمين، عرضت مشكلة تحديد موضوع علم الكلام، فقيل :هل يشتمل علم الكلام على مسائل الاعتقاد فقط أم أنه يشتمل على الوسائل المؤدية لإثباتها فيدخل في نطاقها ما يتداوله الفلاسفة من موضوعات[14]، ومن ثمة كان الفرق بين المتكلم والفيلسوف، على أن هذه التفرقة بينهما لا تمنع القول باختلاط علم الكلام بالفلسفة ومن هذه الفروق:

1-يمتاز علم الكلام عن الفلسفة الإلهية المشارك لها في موضوعها في أن البحث يجري في علم الكلام بحسب القواعد والأصول المقررة في الشريعة الإسلامية، في حين أن البحث الفلسفي يجري بمقتضى عقول الفلاسفة ومسلماتهم وحسب[15]، أي أن الفلسفة وعلم الكلام يختلفان في المنهج، فمنهج البحث عند المتكلمين هو قواعد وأصول الشريعة، أما منهج البحث عند الفلاسفة فهو العقل.

2-العقل لدى الفيلسوف هو المنطلق الذي يبدأ منه وينتهي إليه في تقرير الحقائق التي يفرضها، في حين يبدأ المتكلم من عقائد دينية مبنية في أساسها على نصوص إلهية المصدر، ويفترض أن ينحصر عمله في بيانها وتأييدها بالحجج العقلية ودفع الشبه عنها[16].

3-إذا عالج المتكلم موضوعات من صميم مباحث الفلسفة كالجسم الطبيعي والحركة فإنه يعالجها ليدعم بها اعتقادا دينيا لديه فالمتكلم يستند إلى ما جاء به الدين من اعتقادات ثم يلتمس الحجج العقلية التي تدعمها؛ أما الفيلسوف فيبحث بعقله ويرى حقا ما يتوصل إليه بالدليل دون نظر إلى ما جاء به الدين[17].

4-الفيلسوف العقلي يدرس موضوعه دراسة عقلية خالصة لا ترتبط بدين وتبدأ عادة بالشك في الأشياء ثم يتدرج منه إلى اليقين؛ أما المتكلم فيبدأ بحثه بالإيمان بالعقيدة إيمانا قلبيا ثم يذهب كل مذهب للحصول على أدلة عقلية تزكي هذا الإيمان وتدفع شبه الخصم؛ فموقفه هو موقف المدافع عن العقائد وهذا يعني أنه يؤمن بصحة القضايا التي يدافع عنها أولا ثم يعمل عقله ثانية ويدعمها بالبراهين[18]، أي أن المتكلم يعتقد ثم يستدل على صحة اعتقاده، أما الفيلسوف فيستدل ثم يعتقد. كما أن هدف الفيلسوف هو البحث عن الحقيقة

بغض النظر عن طبيعتها. بينما هدف المتكلم هو إقرار عقائد معينة أي العقيدة الواردة في الشرع.
5-نظر الفيلسوف في الطبيعيات مخالف لنظر المتكلم وهو ينظر في الجسم من حيث يتحرك ويسكن والمتكلم ينظر فيه من حيث يدل على الفاعل، كذا نظر الفيلسوف في الإلهيات إنما هو نظر في الوجود المطلق وما يقتضيه لذاته ونظر المتكلم في الوجود من حيث إنه يدل على الموجد[19].

المطلب الثالث: موقف العلماء من علم الكلام

وسأتطرق فيه إلى موقف الأئمة الأربعة من علم الكلام بالإضافة إلى آراء أهم المتكلمين المسلمين

الفرع الأول: حكم الاشتغال بعلم الكلام عند الأئمة الأربعة

أولا: عند الإمام أبي حنيفة النعمان (80-150 هـ)

يعتبر أبو حنيفة من أتباع مدرسة أهل الرّأي التي مالت للاجتهاد ولم تقف عند آراء السّلف، مما يجعل منه فقيهاً مرحباً ومتسامحاً مع علم الكلام؛ بل إنّ بعض آرائه انصبّت في علم الكلام، فأبو حنيفة على سبيل المثال أجاز ترجمة القرآن، وخالف بذلك جمعًا من العلماء كالإمام مالك والشّافعي وغيرهم. وقد استند التيّار الذي أجاز ترجمة القرآن وعلى رأسهم أبو حنيفة إلى أنّ الفرس كتبوا إلى الصّحابي سلمان الفارسي أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسيّة، فكانوا يقرؤون التّرجمة الفارسيّة للفاتحة في الصّلاة[20].

أما موقف أبي حنيفة من علم الكلام فهو موقف الفقيه القلق والشّكّ من نفع هذا العلم، فقد سئل عن اختياره للفقه كعلم يدرسه دون العلوم الأخرى؛ وفي إجابته عن هذا السّؤال تطرّق لموضوع علم الكلام وبيّن موقفه منه، فقال: "إنّي لمّا أردت تعلّم العلم، جعلتُ العلوم كلّها نصب عيني، فقرأت فنّا فنّا منها، وتفكّرت في عاقبته، وموضع نفعه. فقلت آخذ في (علم) الكلام، ثمّ نظرت، فإذا عاقبته سوء، ونفعه قليل، وإذا كمل الإنسان فيه، لا يستطيع أن يتكلّم جهاراً، ورُمي بكل سوء، ويُقال عنه صاحب هوى"[21].

ثانيا: عند الإمام مالك (93-179هـ)

ويُعتبر مالك إمام أهل السّنة، ولذلك فإنّه كان يبغض أقوال المتكلّمين من الفرق الإسلاميّة في العقائد، فالسّنّة هي في النّهاية فرقة من الفرق الإسلاميّة التي تدافع عن آرائها؛ وفي رأي مالك أنّ الفرق الإسلاميّة التي تمارس الكلام تثير أموراً لم يثرها السّلف الصالح، وليس من مصلحة المسلمين إثارتها، فهي قامت بمناقشة أمور غيبيّة بواسطة العقل، وهذا لا يصح، لأنّ العقل هنا يظلّ، ولهذا ينسب لمالك أنّه قال: "إيّاكم والبدع، فقيل: يا أبا عبد الله وما البدع؟ قال: أهل الكلام[22]".

وقد سئل الإمام مالك عن استواء الله على عرشه، فقال جوابه الشّهير: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول والإيمان به واجب والسّؤال عنه بدعة".

وكان موقف مالك في كلّ هذه القضايا الكلاميّة هو أنّه ينبغي الوقوف فيها عند ما وقف عنده السّلف بعدم تجاوز النّصّ وعدم الجدل فيه لأنّه لا فائدة من ذلك[23].

ثالثا: عند الإمام الشّافعي (767-820م)

كان الشّافعي على علم بعلم الكلام، ولكنّه كان كفقهاء عصره يبغض علماء الكلام وكلّ مشتغل بهذا العلم، وكان رأي الشّافعي قاسيا في هذا الحقل العلميّ، بل كان رأياً خطيراً ومتعصّباً، إذ ينسب إليه أنّه قال لأصاحبه: "حكمي في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد، ويحملوا على الإبل منكسين، ويطاف بهم في العشائر والقبائل، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنّة، وأخذ في الكلام". وبُغضُ الشّافعي لعلماء الكلام وصل لدرجة أنّه كان لا يعدّهم علماء، إذ قال: "لو أنّ رجلاً أوصى بكتبه من العلم، وفيها كتب الكلام، لم تدخل كتب الكلام في تلك الوصيّة"[24].

ومع ذلك فإنّ الشّافعي تحدّث في بعض ميادين علم الكلام، ولكنّ حديثه كان حديث الفقيه الذي يستخدم العقل والنّقل. وقد رأى الشّافعي أنّ كلام الله غير مخلوق واعتقد برؤية الله يوم القيامة، وبالإيمان بالقضاء والقدر خيره وشرّه، وأنّ الإيمان تصديق وعمل، وأنّه يزيد وينقص بزيادة العمل ونقصه، ورأى أنّ الإمامة في قريش[25].

رابعا: عند الإمام أحمد بن حنبل (164-241هـ)

كان موقف الإمام أحمد بن حنبل من علم الكلام موقفا شديدا، فقد كان ينهى النّاس عن الكلام، وقد كتب الإمام أحمد إلى رجل يسأله عن مناظرة أهل الكلام: "أحسن الله عاقبتك، الذي كنّا نسمع، وأدركنا عليه من أدركنا، أنّهم كانوا يكرهون الكلام أي علمه، والجلوس مع أهل الزّيغ. وإنّما الأمر في التّسليم والانتهاء إلى ما في كتاب الله لا يعدون ذلك"[26].

وهكذا فإنّ الإمام أحمد كان يرفض التّفكير في العقيدة بالتّفلسف فيها؛ وينسب إليه أنّه قال: "تجنّبوا أهل الجدال والكلام، وعليكم بالسّنن، وما كان عليه أهل العلم قبلكم، فإنّهم كانوا يكرهون الكلام، والخوض من أهل البدع"[27].

وكان يقول: "لا يفلح صاحب الكلام أبدا" و"علماء الكلام زنادقة" وأيضا: "لا يرى أحد نظر في الكلام إلاّ وفي قلبه دغل"[28].

الفرع الثاني: حكم الاشتغال بعلم الكلام عند أشهر المتكلمين المسلمين

أولا: الإمام الجويني (419هـ -478هـ)

وقد أوصى الإمام الجويني عند موته باجتناب علم الكلام قائلا: يا أصحابنا لا تشتغلوا بعلم الكلام، فلو عرفتُ أنه يبلغ بي ما بلغ ما تشاغلت به[29].

ثانيا: فخر الدين الرازي (544هـ -606هـ)

ونجد الفخر الرازي قال: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي غليلا ولا تروي غليلا...) إلى أن قال: ومن جرب مثل تجربتي فر وكر[30].

ثالثا: ابن خلدون: (732-808هـ)

يقول ابن خلدون: أن علم الكلام، غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم، إذ أن الملاحدة

والمبتدعة قد انقرضوا، والأئمة من أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودوّنوا[31].

رابعا: أبو حامد الغزالي: (505/450هـ)

يقول أبو حامد الغزالي في الإحياء: "فاعلم أن حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التي ينتفع بها، فالقرآن والأخبار مشتملة عليه، وما خرج عنهما فهو إمّا مجادلة مذمومة، وهي من البدع، وإمّا مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق وتطويل بنقل المقالات التي أكثرها ترهات وهذيان تزدريها الطباع"[32].

المبحث الثاني: تجديد مناهج علم الكلام

لابد لكل علم من منهج خاص للدراسة والبحث يتلاءم وموضوع العلم وأدوات المعرفة الخاصة به. وهناك اختلاف كبير بين المناهج العلمية: فبعض العلوم تجريبية، وبعضها عقلية، وبعضها نقلية وهكذا...، وبعضها تدرس في المكتبات وفي طيات الكتب والوثائق والإسناد، وبعضها تدرس في ساحة الطبيعة، وبعضها من خلال مشاهدة سلوك الأفراد والمجتمعات، وبعضها لا يتحصل إلاّ من طريق الوجدان والذوق الباطني، وما إلى ذلك.

واستقراء المناهج المتبعة في تاريخ هذا العلم، يؤدي بنا إلى تمييز مناهج مختلفة في علم الكلام القديم والحديث، وقبل التطرق إلى مناهج علم الكلام سأتناول تعريف المنهج في اللغة والاصطلاح

المطلب الأول: تعريف المنهج لغة واصطلاحا.

المنهج في اللغة:

المنهج لفظ مشتق من النهج تدور معانيه اللغوية حول الوضوح، والاستبانة، والاستقامة في الطريق. يقول ابن فارس:(النهج: الطريق. ونهج لي الأمر: أوضــحه، وهو مستقيم المنهاج ..... والجمع المناهج.)[33] .

ويقول الفيروز آبادي:(استنهج الطريق صار نهجاً، وفلان نهج سبيل فلان، أي سلك مسلكه)[34].

المنهج في الاصطلاح:

ويعرَّف المنهج في اصطلاح البحث العلمي بعدة تعريفات منها:

1-هو الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم، بواسطة طائفة من القواعد العامة، تهيمن على سير العقل، وتحدّد عملياته، حتى يصل إلى نتيجة معلومة[35].

2-الطريقة التي يتعين على الباحث أن يلتزم بها في بحثه، باتباع مجموعة من القواعد العامة التي تهيمن على سير البحث، ويسترشد بها الباحث في سبيل الوصول إلى الحلول الملائمة لمشكلة البحث[36].

3-هو القانون أو القاعدة التي تحكم أي محاولة للدراسة العلمية في أي مجال[37]

وهذه التعريفات قريبة المعنى وإن اختلفت في اللفظ، لأن مدارها على القواعد التي يسير عليها الباحث أو تسيِّره في سبيل بحث المسائل العلمية وصولاً للنتيجة الحقيقية.

المطلب الثاني: مناهج البحث في علم الكلام القديم.

ذهب البعض إلى أن المتكلمين السلف كانوا أحاديي المنهج، بينما المتكلمون اليوم متعددوا المناهج

، وهذه عبارة تشير إلى ضلع مهم من قابلية علم الكلام على التطور، فلا ينكر أحد ضرورة التوسل بمناهج جديدة مناسبة للشبهات والمسائل الجديدة، لكن ثمة اختلاف حول حدود التجديد في المنهج، ومعنى استعمال المناهج الحديثة للأسس المعرفية ومستلزماتها المنطقية، ولكن علم الكلام القديم كان متعدد المناهج ولم يكن منغلقا على منهج واحد، بل استخدم كل ما أتيح له في عصر ويدعمه في مهمته في رد الشبهات عن الأحكام التي أوردها واضع الملة، واستقراء المناهج يؤدي بنا إلى تمييز المناهج العلمية التالية:

1-المنهج التحليلي النقدي: ويراد به اكتشاف عناصر موضوع معين من أجل غرض خاص، ويقصد بنقده عرض تلك العناصر على موازين دقيقة لمعرفة صحتها من فسادها، وهذا المنهج من أبرز خصائص علماء المسلمين -وعلى وجه الخصوص علماء السلف-الذين تميزت كتبهم بالرد على المخالف من الطوائف والفرق وكل من يحمل فكراً مخالفاً لما جاءت به النصوص العقدية الصحيحة، فمن ذلك ما كتبه الدارمي في رده على المريسي، والإمام أحمد في رده على الزنادقة والجهمية، والآجري في الشريعة، وابن حزم في الفصل وإن كان في نقده شيء من المؤاخذات[38].

2-المنهج العقلي المحض

يتميز هذا المنهج باعتماده على العقل البشري كأداة للمعرفة، ويطلق على أتباعه (أصحاب الرأي) ويطلق عليهم (المعتزلة) أيضاً، وقد بدأ هذا المنهج في عصرٍ مبكر من تاريخ الإسلام، ويعتبر المؤسس الأول له (واصل بن عطاء)، ومن بعده: عمرو بن عبيد البصري المعاصر للمنصور الدوانيقي، ثم ابن أبي دؤاد المعاصر للمأمون العباسي، والقاضي عبد الجبار أحمد الهمداني، ومن أكابرهم أيضاً: النّظّام والجاحظ وأبو الهذيل العلاف والزمخشري -جار الله -صاحب (الكشاف) في تفسير القرآن.

وهذا الاتجاه يعطي للعقل البشري دوراً رئيسياً في فهم الدين الإسلامي، خصوصاً في العقائد ويقدمونه على النقل، ويرى أنّ معرفة الله سبحانه ومعرفة صفاته وشرائعه لا تتم إلاّ بالعقل الإنساني، ولكن لا يوجد له أتباع وأنصار معروفون في العصر الحاضر، يسمّون أنفسهم بهذا الاسم وإن كان الاتجاه العقلي هو الغالب على جمهور العلماء والمفكرين، وإنما دخلت عناصر من فكرهم في المذهب الإباضي والزيدي والإسماعيلي.

ونستطيع أن نقول أنّ هؤلاء يشتركون مع المعتزلة في عدة مواقف فكرية، والحال كذلك بالنسبة إلى الشيعة الإمامية الاثنا عشرية، ولكن لا يعني ذلك أنّ الجميع أتباع منهج واحد، أو أنّ واحدة من هذه الفرق اتبعت الفرقة الأخرى مائة بالمائة[39].

3-المنهج الجدلي:

وهو أن يتسلم مقدّمات ويستنتج منها نتائج، وتسمى هذه الطريقة التمانع أو إبطال اللازم بإبطال الملزوم، فالمتكلم يبدأ من أقوال الخصوم ثم يصل عن طريق البرهان إلى نتائج تناقض هذه الأقوال فتبطلها، أي يحاول إبطال النتائج فيكون هذا كافيا لإبطال المقدمات التي تقدم بها الخصوم، ويرى الغزالي

أن منهج المتكلم لا يصلح في إقناع غير المسلم أو الجدلي الذي لا يسلم بغير البديهيات[40].

المطلب الثالث: تحديث المناهج في علم الكلام الحديث.

وقع التزاوج بين الفلسفة وعلم الكلام بعد قرونٍ من التخاصم أدى إلى تغير مناهج علم الكلام، وبينما غلبت على الكلام القديم سمة الانتصارية والتحيز المعرفي والأيديولوجي سواء في جدال وحجاج النحل داخل الملة الواحدة أو في نقد الملل الأخرى، يسعى الكلام الجديد للموضوعية مع التحيز المعرفي وليس التحيز العقدي، اتكاء على فلسفة الدين، ونسبية الفهم رغم تأكيد ممثليه على عدم نسبية الحقيقة الإيمانية بالخصوص، ويستخدم علم الكلام الجديد عددا من المناهج المختلفة، وسأعرضها كما يلي:

1-المنهج التأريخي الوصفي: حيث يسلك المؤلفون فيه جانب العرض التأريخي والوصفي دون حكم على المقولات أو نقد لها؛ ويُمثّل لهذا المنهج بصنيع الأشعري في كتابه "مقالات الإسلاميين"، وكذلك الشهرستاني في "الملل والنحل"، وهذا المنهج لا يؤدي الدور المطلوب من العالِم، وليس هو المنهج الشرعي في بيان الحق والتحذير من الباطل[41].

2-المنهج الذوقيّ (الوجداني):

وهنا نصل إلى اتجاه متمايز آخر يضع المباحث الكلامية على طاولة البحث، ويسلك فيها المسلك الرمزي الذوقي الخاص بالصوفية، الذي يختلف تماماً عن مسلك المتكلمين القائم على العقليات، ثم على السمعيات. ويتمثل في اعتماده على سلوك الطرق المؤدية إلى تصفية الباطن واستكمال الظاهر، بغية الفناء في الوصول إلى مرحلة الحب الإلهي وهو منهج الصوفية[42]، ويعتبر الإمام الغزالي من أكبر رواد هذه الطريقة، فهو يقول في كتابه (إلجام العوام عن علم الكلام): بأن هذا طريق الخاصة، وما دونه طريق العامة، ومن لا يفترق عنهم (أي: العامة) سوى أنه يعرف الأدلة، وليس الاستدلال[43].

3-المنهج العلميّ (التجريبيّ):

وهو منهج حديث تبع فيه قسم من المفكرين الإسلاميين رواد الفكر الأوربي الحديث، فتسرب إلى مصر الحديثة والهند والعراق وإيران، ومنها إلى جميع البلدان الإسلاميّة، ويعرف اليوم بـ (الحداثة)، وله أنصاره ورواده، ويعتبر واحداً من التيارات الفكرية المعاصرة الوافدة من الغرب إلى العالم الإسلامي؛ ولهؤلاء رأي خاص في أدوات المعرفة البشرية، ومن ميزاتهم الاعتماد التام على الحس والتجربة؛ وقد رفضوا المنهج العقليّ والمنطق الأرسطوطاليسي رفضاً باتاً، وحاولوا البحث عن المعارف العليا والمتافيزيقيا والدين بمناهج مستخدمة في مجال الطبيعة والعلوم التجريبية[44].

ومن آثار هذا المذهب الكلامي تفسير المعجزات تفسيراً مادياً، وتفسير النبوة بالنبوغ والعبقرية البشرية؛ ولا شك أن هذا المنهج فيه جناية كبرى على القرآن الكريم والسنة النبوية لما يحمله هذا الأمر من عدم الثقة باللفظ القرآني والنبوي، وأيضاً فإن هذا المنهج قد قصر البحث على الظواهر الكونية، ومعلوم أن هناك أموراً كثيرة ليست داخلة تحت التجربة والحس، ولهذا فهو سبيل لتسلط الأعداء على كل المسلّمات العقلية[45].

4-المنهج الفطري -العرفاني

وهو منهج الإسماعيلية لأن التيار الإسماعيلي يمثل الجانب العرفاني والصوفي في الفكر الشيعي، أو الدعوة الشيعية إلى الباطنية في الإسلام، وقد غلوا في مذهبهم واتجهوا نحو العرفان والتصوف؛ ويجمع هذا المنهج الحجة العقلية، والنص الشرعي (النقل) والذوق السليم؛ ويضع كل هذه الأمور في مواضعها، ولا يتزمّت، ولا يجمد على واحدة من أدوات المعرفة، وأصحاب هذه الطريقة يتجنبون الوقوع في المناظرات الكلامية المعقدة، ويحتجون بأحاديث أهل البيت والصحابة -رضوان الله عليهم -في النهي عن التورط في الكلام والخصومات حسب الإمكان، إلاّ إذا دعت إليه الضرورة، ولقمع شبه المعاندين، وحجتهم أنّ المتكلمين من فرقةٍ واحدةٍ ومذهبٍ واحدٍ، وقد يصل عدد المسائل التي يختلفون فيها إلى مائة مسألة[46]؛ ومن ميزات هذا المنهج تخلصه من المجادلات الكلامية والمتاهات النظرية، ومعالم الفطرة لا تندرس لوجود "الذكر" "والوحي". ويعتبر منهجا تكامليا لاعتماده على النقل والعقل.

5-المنهج المقارن:

ويستخدم المنهج المقارن استخداما واسعا في الدراسات القانونية والاجتماعية، كمقارنة ظاهرة اجتماعية بنفس الظاهرة في مجتمع آخر، أو مقارنتهما في بعض المجالات الاقتصادية والسياسية والقانونية.

ويتيح استخدام هذا المنهج المقارن، التعمق والدقة في الدراسة، فعلى سبيل المثال يمكن أن ندرس جانبا واحدا من جوانب المؤسسة الاقتصادية كالأداء أو المواد البشرية...

ويمكن أن تكون المقارنة لإبراز خصائص ومميزات كل موضوع من موضوعات المقارنة، وإظهار أوجه الشبه والاختلاف بينهما.

وهو منهج يسلك سبيل الربط بين الموضوعات المتعددة، لاستخلاص أوجه الشبه أو الخلاف بينها، ثم الخروج من ذلك بحكم تدعمه نتائج العملية، وهذا المنهج مهم في دراسة العقائد والملل والنحل، يمتاز بمهمة الخروج من تلك المقارنة بأوجه الحُسْن التي تدعو ضمناً لاتباعه، وطرح السيئ ونبذه. ويمكن أن يمثل لهذا المنهج بمسلك ابن تيميه في رده على النصارى في كتابه الجواب الصحيح، ورده على الشيعة الإمامية في كتابه منهاج السنة النبوية[47].

وهذا المنهج والمنهج السابق له يشكلان مجتمعين منظومة لا غنى لدارس الاعتقادات عنها، بل هما ضروريان لكل باحث منصف.

6-المنهج العلمي التجريبي: وهو منهج وفد من الفكر الأوربي الحديث، يعتمد على الأساليب الحسية والتجريبية فقط، ويرفض أي منهج آخر كالمنهج النقلي والعقلي، ويحاول البحث عن المعارف الإلهية بأساليب العلوم العملية والتجربة الميدانية، ومما لا شك فيه أن هذا المنهج في البحث العلمي مر بمراحل عديدة من التطور، شأنه في ذلك شأن الحضارة الانسانية، فبينما كان الانسان الأول يقوم باستخدام هذا المنهج دون أن يشعر، أصبح هذا المنهج الآن مكتمل الصور، ويتم استخدامه بطريقة تعتمد في الاساس

على القواعد العلمية؛ وتتضح قيمة المنهج التجريبي في العلوم البحتة والتطبيقية.

وقد صار من آثار هذا المذهب تفسير المعجزات تفسيراً مادياً، وتفسير النبوة بالنبوغ والعبقرية، وممن سلك هذا المنهج أحمد خان الهندي، وجوهري طنطاوي في تفسيرهما للقرآن.

وقد قلنا سابقا بأن هذا المنهج فيه جناية كبرى على القرآن الكريم والسنة النبوية لما يحمله هذا الأمر من عدم الثقة باللفظ القرآني والنبوي، كما أنه قد قصر البحث على الظواهر الكونية، ومعلوم أن هناك أموراً كثيرة ليست داخلة تحت التجربة والحس.

الخـاتمة

لقد اتضح لنا فيما سبق أن علم الكلام يتناول عرض العقيدة الإسلامية، والدفاع عن أصولها ومبادئها، والرد عن حياضها، والتجديد في هذا العلم لا يعني بحال المساس بالعقيدة؛ فهي هدى أزلي، وحقائق ثابتة، لا مكان فيها للتجديد، بل الذي يتجدد ويتقادم هو الفكر الإسلامي، وطريقة العرض، وطريقة التفاعل بين عقول المسلمين وثوابت الدين الخالدة[48]، وبعد الانتهاء من هذا العرض الموجز والسريع لمادة هذا البحث، فهذا إيجاز لأهم النتائج وخلاصة لهذا البحث:

1-علم الكلام علم إسلامي أصيل، نشأ ضمن علوم كثيرة في الحضارة الإسلامية، محوره الأساس العقائد الإسلامية؛ أي أصول الدين لا فروعه.

2-ذكرت أقوال العلماء في تعريف علم الكلام، وبينت أن منها ما هو شامل يستوعب غاية هذا العلم وهدفه، ومنها ما هو قاصر. وأشملها أن علم الكلام هو علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبهة بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة.

3-اختلفت آراء الفقهاء بين مبيح للاشتغال بها العلم وبين محرّم له، والأرجح ابتعاد العامة عنها دون أصحاب التخصص.

4-يختلف علم الكلام عن الفلسفة من حيث المنطلق والمنهج والضابط والهدف، فمن حيث المنطلق فالعقل لدى الفيلسوف هو المنطلق الذي يبدأ منه وينتهي إليه في تقرير الحقائق، في حين ينطلق المتكلم من عقائد دينية مبنية في أساسها على نصوص إلهية المصدر؛ كما أن المتكلم يعتقد ثم يستدل على صحة اعتقاده أما الفيلسوف فيستدل ثم يعتقد. أما من حيث المنهج فنجد منهج البحث عند المتكلمين هو قواعد وأصول الشريعة، أما منهج البحث عند الفلاسفة فهو العقل. ومن حيث الضابط نجد علم الكلام يتناول قضايا عقلية خالصة ويطرحها داخل إطار عقائدي بينما الفلسفة تتناولها وتطرحها طرحا حرا لا يخضع لأي سلطة أو دين؛ أما هدف الفيلسوف فهو البحث عن الحقيقة بغض النظر عن طبيعتها، بينما هدف المتكلم هو إقرار عقائد معينة أي العقيدة الواردة في الشرع.

5-التجديد المنهجي في علم الكلام من أهم مظاهر التجديد لأنه يتطور اعتماد على مناهج محدثة تحافظ على الموروث القديم وتجدده لمسايرة المستجدات الحديثة، وقد أكد البحـــث على وجوب تجديد علم الكلام

وتطويره، بحيث يواكب العصر، ويجيب عن الأسئلة المستجدة.

6-نُميّز المنهج التحليلي النقدي والمنهج العقلي والمنهج الجدلي في علم الكلام القديم، وقد اعتمد على المنهج الجدلي بصورة كبيرة لرد الشبهات على أحكام الدين.

يختلف علم الكلام عن الفلسفة

7- مع اختلاط علم الكلام بالفلسفة وتأثره بها ظهرت مناهج جديدة يسعى من خلالها علم الكلام الجديد للموضوعية مع التحيز المعرفي وليس التحيز العقدي.

8- التجديد في مواضيع علم الكلام ضرورة يمليها الواقع، ويوجبها اضطلاع الأمة بمسؤولية الشهادة، حتى تتحقق لها النصرة على الدين كله، ويكون الدين كله لله.

9- ينبغي أن تكون محاولات التجديد في المنهج أو في القضايا أو في الوسائل مشروطة بالحفاظ على ثوابت العقيدة، التي لا يصح التفريط فيها تحت أي مسمى، ولا حرجَ عندئذٍ من التجديد في وسائل الإقناع، وطرق العرض، وصور الاستدلال.

الهوامش

1- حيدر حب الله، علم الكلام الجديد: قراءة أولية، ضمن" العقلانية الإسلامية والكلام الجديد" مجموعة باحثين، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط1، سنة 2008، ص9-10.

2- جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، لبنان، 2003م، ج10، ص263.

3- احمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، ط1، 1404هـ، ج4، ص109.

4- محمد بن صالح العثيمين، كتاب العلم، تحقيق: صلاح الدين محمود، مكتبة نور الهدى، ج1، ص9.

5- محمود عبد الرحمن عبد المنعم، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، ج2، ص423.

6- احمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق، ج5، ص131.

7- ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، دار التراث، القاهرة، ط20، 1980م، ج1، ص13.

8- عضد الدين الإيجي، المواقف، ط1، مطبعة دار الجيل، بيروت، لبنان، 1417هـ، ج1، ص31.

9- عبد الهادي الفضلي، خلاصة علم الكلام، دار المؤرخ العربي، ط2، 1414هـ، ص10.

10- عبد الرحمن ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ط4، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ج1، ص435.

11- خليل الجر، حنا الفاخوري، تاريخ الفلسفة العربية، دار الجيل، بيروت، ج2 ، ص67 .

12- الفارابي، الجمع بين رأيي الحكيمين، ط 5، تحقيق: ألبير نادر، دار المشرق، بيروت، د.ت، ص 80.

13- سعد الدين التفتزاني، العقائد النسفية / نقلا عن تحريم النظر في كتب الكلام، للإمام موفق الدين قدامة المقدسي، تحقيق : محمد سعيد دمشقية، دار عالم الكتب، الرياض، ط1990م-1410هـ، ص

14- محمود محمد نفيسة، أثر الفلسفة اليونانية في علم الكلام الإسلامي حتى القرن السادس الهجري، ط1، دار النوادر، دمشق، 2010م، ص29

15- موسى معيرش، قضايا الفلسفة العامة، ط1، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 59.

16- محمد الصالح الزركان، فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية، د.ط، دار الفكر، القاهرة، د.ت، ص610.

17- زبيدة الطيب، علاقة الفلسفة بعلم الكلام، مجلة المعيار، العدد41، ص281.

18- علي شابي، مباحث في علم الكلام والفلسفة، ط1، دار الكتب الوطنية، ليبيا، 2002م، ص 16.

19- عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، ط، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص836 – بتصرف-

20- رشيد الخيّون، جدل التنزيل مع كتاب خلق القرآن للجاحظ، منشورات الجمل، ص101.

21- سليمان فيّاض، الأئمّة الأربعة، كتاب الدّوحة، وزارة الثّقافة والفنون والتّراث . دولة قطر، ص 16.

22- آرثور سعدييف، توفيق سلّوم، الفلسفة العربيّة الإسلاميّة، دار الفارابي بيروت، الطّبعة الأولى 2000، ص 40.

23- سليمان فيّاض، الأئمّة الأربعة، مرجع سابق، ص 96 و97.

24- جلال الدين السيوطي، صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام، مجمع البحوث الإسلامية، الأزهر، القاهرة، 1970م، ص15.

25- سليمان فيّاض، الأئمّة الأربعة، مرجع سابق، ص 127 و128.

26- المرجع نفسه، ص،151.

27- سليمان فيّاض، الأئمّة الأربعة، مرجع سابق، ص 165.

28- آرثور سعدييف، توفيق سلوم، الفلسفة العربيّة الإسلاميّة، مرجع سابق، ص 40.

29- فتح الباري (350/13) نقلا عن كتاب تحريم النظر في كتب الكلام للإمام ابن قدامة المقدسي، تحقيق : سعيد دمشقي، ص18-19، دار عالم الكتب الرياض، ط1/ 1410-1990.

30- أحمد بن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، تحقيق عامر الجزار وآخرون، دار الوفاء، المنصورة، 1997م، ج4، ص73.

31- عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ص 108.

32- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار الرشاد الحديثة، المجلد 1، ص 22.

33- ابن فارس، مقاييس اللغة، ج5، مصدر سابق، ص361.

34- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، ط8، بيروت، 2005م ص266.

35- عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط3 ،1977م، ص5.

36- عبد الفتاح خضر، أزمة البحث العلمي في العالم العربي ،1981م، ص11.

37- جلال محمد موسى، منهج البحث العلمي عند العرب في مجال العلوم الطبيعة والكونية، دار الكتاب للنشر، بيروت، د.ت، ص 273.

38- يوسف السعيد مناهج البحث في العقيدة، ص290-292.

39- عباس علي البراتي، دراسة في المنهج لعلم الكلام المقارن، دراسات مقارنة، مقال الكتروني.

40- محمد على أبو رايان، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعرفة الجامعية، 2000م، ص 218.

41- يوسف السعيد مناهج البحث في العقيدة، ص290.

42- عباس علي البراتي، دراسة في المنهج لعلم الكلام المقارن، دراسات مقارنة، مقال الكتروني.

43- الغزالي: إلجام العوام عن علم الكلام، دار الفكر اللبناني، 1998م، ص66 – 67.

44- عبد الحليم محمود، الإسلام والعقل، دار المعارف، 2008م، المقدمة.

45- يوسف السعيد، مناهج البحث في العقيدة، مرجع سابق، ص292.

46- علي بن طاووس، كشف المحجّة لثمرة المهجة، تحقيق: محمد الحسون، مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي، ط: 2، 1417هـ، ص 11-20.

47- يوسف السعيد، مناهج البحث في العقيدة، ص 292.

48- حسن الترابي، الفكر الإسلامي هل يتجدد، مكتبة الجديد، تونس، ص 23.